الفصل الثالث

- البحث الأول : صابئة البطائح وصابئة حران.
- البحث الثاني : الصابئة المندائيون والغنوصية.
- البحث الثالث : الصابئة المندائيون والأحناف.
- البحث الرابع : الصابئة المندائيون والزرادشتية والمانوية.
- البحث الخامس : الصابئة المندائيون والإيزيدية.
- البحث السادس : الصابئة المندائيون والديانة السومرية والبابلية.

الدين المندائي والأديان الأخرى

يعتبر الصابئة المندائيون أن الدين المندائي هو جذر التوحيد الأول وأن آدم رأس السلالة البشرية، دين محبة وسلام وتآخي، دين روحاني يؤمن بالحياة الروحانية، ولهذا فهم لا يعطون أهمية للحياة المادية في هذا العالم بقدر ما يعطون أهمية بالغة للحياة الثانية في العالم العلوي (عالم الأنوار) يعيشون فيه سعداء بلا أمراض ولا شيخوخة ولا موت ثانٍ، شرط أن تكون كفة أعمالهم الراجحة في هذه الدنيا، بمعنى أن تكون الروح منضبطة خلال مرحلة الحياة قليلة الخطايا، ولهذا فإن الصابئة المندائيين لم يفكروا في إنشاء قوة أو نظام حكم أو أعداد جيش أو تصنيع أسلحة فتاكة، اهتموا بالإيمان العميق (الناصوراثا)، وبذل الجهود بتطبيق أركان الدين المندائي، وقد نجحوا في التوحيد والتعميد (الصباغة) على وجه الخصوص، ولم يتمكنوا من تنفيذ الصوم والصلاة بالدقة المطلوبة، أما الصدقة فهي بين بين.

ونجحوا إلى حدٍ ما في تجنب الكثير من المحرمات وليس جميعها، وخاصة نجحوا نجاحًا باهرًا في تجنب القتل وسفك الدم وانتهاك الأعراض والتجديف باسم الحي العظيم، كما نجحوا بامتياز في تجاوز محرمات الطعام، وخاصة المؤمنين منهم ورجال الدين الأفاضل الذين لا يأكلون طعامًا إلا من صنع أيديهم أو تحت إشرافهم ومن أيادي أمينة نظيفة طبقًا للطقوس والشعائر والتعليمات.

والشيء الجميل الموروث من رجال الدين الكرام والأجداد وحدة المجتمع المندائي وأن المندائيين ثلة واحدة فليس هناك في الدين المندائي مذاهب ولا تطرف ولا اجتهادات ولا فرق مذهبية ولا فرق صوفية ولا غير ذلك البتة... والجميل أيضًا في الدين الصابئي المندائي لا توجد أضرحة ولا مقامات ولا قبور ولا أولياء يتشفعون بها، الشفاعة للحي العظيم (الله) وحده والقسم باسم الحي العظيم وحده لا شريك له.

والصابئي المندائي بطبيعته وتربيته الدينية والاجتماعية مسالم لا يحب العنف يكره القتال بكل أنواعه، ولهذا عندما يتعرضون للمضايقة أو الأذى من الأديان الأخرى أو من الحكومات الدكتاتورية بسبب الدين أو السياسة يفضلون الهجرة إلى مكان آمن يحترمهم ويعطيهم حق قدرهم ويحميهم ، كذلك لا يحبون الحروب لأنها تسبب قتل الناس وتعاسة المجتمعات الآمنة المسالمة وشعارهم دائمًا وأبدًا لا تقتلوا... لا تزنوا... لا تكذبوا ، والمحرمات كما ذكرنا عندهم كثيرة، وهناك قواسم مشتركة في معظم الوصايا مع الأديان الأخرى.

هنا نود أن نوضح أن الوصايا والتعليمات المنزلة من الخالق بواسطة جبرائيل الرسول ، هل يوصلها جبرائيل لفظًا ومعنى إلى النبي المرسل أم يوصلها معنى، وهل جبرئيل الرسول يحفظها من الحي العظيم لفظًا وينقلها نصًا أم يفهم المعنى وينقله لكونه أسهل ، من هذا نفهم أن الوصايا ربما تحدث زيادة أو نقصان ، ومن هنا جاء الاختلاف في النصوص لكون المصدر واحد وهو رب العالمين ، ثم لو كان النبي أي نبي عليه السلام يسمع المعنى ويصوغ عليه الآية (البوثة) فحتمًا هذا النبي متأثر بالمحيط الذي يعيش فيه وبالأديان السابقة والتراث والثقافات التي تربى في وسطها ، وإلا من أين جاءت الميثولوجيا (علم الأساطير) للأديان الموحدة مثلاً (الصابئة، اليهود ، النصارى، الإسلام).

والفقهاء ورجال الدين والمؤمنين وجدوا تخريجة لذلك فسموها خوارق ومعجزات، تتعارض مع المنطق والعقل وبالتالي مع العلم والتكنولوجيا المتقدمة لأنه لابد من إعمال العقل في الخبر المنقول لتكون المعلومة صادقة وأمينة ، ثم لماذا الطائفية في الأديان الموحدة، كاثوليك وأرذوكس وبروتستانت ، ولماذا سنة وشيعة مثلاً ؟ أليس المسيحيون ربهم الله جل جلاله ونبيهم عيسى وكتابهم الإنجيل جميعهم ، والمسلمين ربهم الله ونبيهم محمد وكتابهم القرآن فلماذا الطائفية، ولماذا هذه الفرق الدينية، ثم لماذا هذا الاقتتال الطائفي...

إن الحي العظيم في علاه أرسل رسالة التوحيد على أنبياءه ليوحدوه ويسبحوه ويعظموه ويمجدوه في علاه ، والمفروض هذه الرسالات واحدة متشابهة لا تختلف حتى باختلاف المكان والزمان ، وإذا حصل مثلاً اختلاف بسبب المعنى واللفظ والصياغة ، واجب على الفقهاء والمؤمنين توحيد المبادئ الأساسية للدين لا زرع الفرقة والتناقض ، مما جعل الأديان تتحول إلى طائفية دينية يتقاتلون فيما بينهم وكل منهم يرى أنه على حق ، ولا نعلم من أين جاء بهذا الحق.

المشكلة أن كل الأديان المنزلة لم تدون عند نزولها على الأنبياء في زمن وجودهم ولنأخذ أمثلة على ذلك ، لم يكن في زمن آدم وشيت وسام كتابة حتى تدون المعلومات ، ولربما دونت هذه المعلومات المحفوظة في زمن إدريس أو يحيى بن زكريا (يهيا يوهانا) ، وكذلك الدين اليهودي دونت التوراة بعد ألف سنة من وفاة نبي الله موسى أي في سنة ٤٤٥ قبل الميلاد ، والذين دونوا التوراة كانوا من سبايا الملك نبوخذ نصر ملك بابل ، ومنهم (عزرا الكاتب) وله مرقد في جنوب العراق وقد عاشوا ردحًا من الزمن في بابل وتأثروا بأديان حضارات وادي الرافدين وبالدين المندائي وبالديانة الزاردشتية والمانوية المنتشرة في ذلك الزمان.

لاحظ سيدي القارئ أن الدين السومري يذكر لنا في نصوصه أن حواء خُلقت من ضلع الرجل آدم (طبعًا السومريون أعطوه اسمًا آخر) ، وتذكرنا الأديان الموحدة أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر وامتلأ مكانه باللحم ، وعلم التشريح يؤكد لنا أن لكل من آدم وحواء أربعة وعشرين ضلعًا ، أي أن آدم أضلاعه كاملة ولم يؤخذ منها شيء ، أو أن آدم رأس السلالة البشرية فقط أخذ منه ضلع بعملية جراحية كبرى في ذلك الزمان ولم يتأثر علم الوراثة بذلك باعتبار أن آدم خلق كاملاً.

يذكر لنا الدين الصابئي المندائي في كتاب الكنز العظيم أن الحي العظيم أمر بخلق آدم وحواء من الطين الأحمر (الصلصال) في عالمنا هذا وبعثت له نشمثا

(نفس) من العالم العلوي (عالم الأنوار)، بينما تقص علينا التوراة قصة طرد آدم وحواء من الجنة لأنهم خالفوا تعاليم الرب وصدقوا الحية التي خدعتهم وأخرجتهم من جنة الله.

ونعود لميثولوجيا الأديان والتي يسميها الروحانيون المعجزات أو الخوارق أن عددًا من الشخصيات وحتى منهم أنبياء ذكرهم التاريخ ليس هناك دلائل تدل على وجودهم في ذلك الزمان المذكور، وحتى الطوفان اعتبره عدد من العلماء ميثولوجيا إذ قام عدد من العلماء بحساب كمية المياه الموجودة في هذا العالم فوجدوها لا تستطيع غمر كامل الكرة الأرضية ولا حتى نصفها، ولا يمكن أن تكون كافية لتغطية الجبال ولا ربعها.

إن الحي العظيم جلَّ جلاله أنزل الأديان على الأنبياء كدساتير ربانية لينظم حياة خلقه ويعلمهم الإيمان والحكمة والتوحيد والأخلاق الكريمة والقيم الحميدة، وليعيشوا بسلام ومحبة لأن الله هو السلام وهو المحبة، إن الحي العظيم لم ينزل الأديان على أنبيائه ليحولها الفقهاء إلى مذاهب وفرق مذهبية تقاتل بعضها البعض، ولم يأمر الله في علاه أن تتقاتل الأديان بسبب التعصب ولم يأمر أن يتحول الدين إلى مصالح سياسية تخدم فئة على حساب فئة، ولا يجوز المتاجرة بالدين أو استغلال الدين أو تحريف أي نص ديني لأن هذا من المحرمات، الدين لله وعلى الناس الإيمان بما أنزله الله من دين رحمة للعالمين.

وتبقى مشكلة الميثولوجيا التي يناقشها عدد من الباحثين الذين لا يؤمنون بالمعجزات الروحانية ومنهم العرفانيون الذين يرجحون العقل والمنطق ومنهم من يناقش الموضوع وفق المعطيات العلمية، هذه الميثولوجيا أصبحت من أساسيات الأديان وليس هناك دين غير توحيدي أي يؤمن بتعدد الآلهة أو الأديان التوحيدية التي توحد الحي العظيم تخلو من المثيولوجيا، وعبر الأزمان تجسدت هذه الأساطير بالرسوم والمنحوتات والقصص والتفسير وآمن بها خلق كثير، وطالما نزلت في الكتب الدينية المنزلة الموحدة لرب القدرة، فلا يحق

لكائن من يكون من البشر أن يمحوها ويزيلها، ولو أراد الحي العظيم جلت قدرته أن يزيلها لأزالها لأنه على كل شيء قدير.

والآن لنشرح بإيجاز شيء عن الأديان التي عاشت في نفس الزمان والمكان...

البحث الأول

صابئة حران وصابئة البطائح

▪ أعلام حرانية :

١- هناك عائلتان مندائيتان حرانيتان اشتهرت بهما حران واشتهروا بها: عائلة الصابي وعائلة قرة، عاشوا ونبغوا واشتهروا وذريتهم في هذه المدينة القديمة العريقة ، ومنها انطلقوا إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ليتبوؤا أعلى المناصب العلمية والأدبية المهمة.

مدينة حران وما أحلى اسمها المشتق من اسم أخ أبو الأنبياء إبراهيم الخليل هاران ، تقع في الشمال الغربي من العراق على نهر البليخ في تركيا بجوار الحدود السورية التركية ، وكانت مشهورة بتجارتها وبنطقها الآرامي ، يعيش فيها المندائيون، فتحها المسلمون في زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب.

لقد ذكرها المؤرخون والباحثون لأهميتها التاريخية ومنهم المقدسي وابن جبير ودائرة المعارف الإسلامية وأحمد سوسة في كتابه (العرب واليهود قبل الإسلام) والمؤرخ المعاصر حامد السعودي في كتابه (حقيقة الصابئة المندائيين)، ولكنها اضمحلت وذهبت ريحها عام ١٩٣٢م ، واليوم هي عبارة عن قرية صغيرة وأطلال طينية (حضارات سادت ثم بادت).

وإذا راجعنا اليوم كتاب حران كويثا أحد الكتب المندائية المهمة يدلنا على هجرة المندائيين من فلسطين إلى هذه المدينة بقيادة المندائي (أردوان ملكه) فوجدوا لهم أخوة في مدينة حران وأكرموهم وضيفوهم وساعدوهم على تخطي محنتهم.

٢- لقد هيأ لها موقعها الجغرافي على مفترق الطرق التجارية في العالم القديم أن تكون حران مدينة تجارية ذات شأن في الحضارة والثقافة والأديان ، فيذكر

لنا الهمداني أن أهلها أصحاب علم وأدب وحكمة ومتبحرين في علوم الكواكب وأصحاب رصد وقياس ولهم فطنة وذكاء.

ويذكر الطبري أن نوح بعد الطوفان قد خطها وخط سورها بنفسه، وأنها تأتي في القدم بعد مدينة أور السومرية أو ربما قبلها ، وقد عرفت بعدة أسماء فاليونانيون يسمونها كاران والرومان يسمونها كاريا والسومريون حرانو ومعناها الطريق ، وذكرها التوراة باسم فران ، وقد كشفت التنقيبات أن الملك شلمانصر الثالث احتلها سنة ٨٥٧ قبل الميلاد ، وأسكن فيها جالية آشورية وبنى فيها قصر ومعبد لإله القمر (سين)... واستقر فيها عدد لا يستهان به من الآشوريين بعد سقوط نينوى عام ٦١٢ قبل الميلاد ، احتلها اليونانيون في زمن الإسكندر المقدوني وجعلها مركز للثقافة فكثر فلاسفتها وعلماؤها وأثروا في الفكر الإنساني والديني.

وفي زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز (ر ض) بعد أن ولى عليها الوالي عياض بن غنم الذي احتلها في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (ر ض) نقل إليها معاهد الطب من الإسكندرية ، وجعلها الخليفة مروان الثاني عاصمة له ، ونقل إليها دواوين الدولة وإداراتها ، وبعد سقوط الدولة الآشورية على يد العباسيين استمرت مدينة حران على معتقداتها الروحية وعلى نهجها العلمي والأدبي وكانت اللهجة المندائية أخت اللهجة السريانية هي السائدة آنذاك.

لقد كان علماء وأدباء حران يتقنون عدة لغات منها اليونانية والعربية وكان من السهل عليهم أن ينقلوا الحضارة الإغريقية إلى اللغة العربية خاصة عندما ازدهرت أعمال الترجمة ، ثم تطور الأمر إلى التأليف فازدهرت الحضارة العربية الإسلامية.

٣- أصيبت حران زلزالين ؛ الأول عام ١١٤ ميلادي والثاني عام ١١٥٧ ميلادي ، فتهدمت معظم مبانيها وهجرها خلق كثير من أهلها فأخذت أهميتها بالتراجع ، بعدها احتلها المغول بقيادة هولاكو فتشتت أهلها ودمرها المغول وحولوها إلى خرائب واليوم حران قرية فقيرة مهملة ألحقت بتركيا.

٤- لقد استفاد الخلفاء العباسيون من جمهرة من علماء حران وخاصة في زمن المأمون عندما أنشأوا دار الحكمة، فقد نبغ العديد من رجال مدينة حران بالعلوم وبالفلك خاصة كذلك في أعمال الترجمة والتأليف والإنشاء، كما برز علماء وأطباء ومهندسون وشعراء وأدباء وفنانون نذكر منهم:

≠ **ثابت بن قرة :**

ولد في حران عام ٢٢١ هـ وتوفي في بغداد عام ٢٨٨ هـ ، وفق ما ورد في الفهرست لابن النديم، كان لثابت مؤلفات عديدة منها: كتاب حساب رؤية الأهلة ، رسالة في سنة الشمس ، رسالة في استخراج المسائل الهندسية ، رسالة في الأعداد ، الشكل القاطع ، رسالة في الحجة المنسوبة إلى سقراط وكتاب أبطال الحركة في تفلك البروج ، رسالة في الحصى المتولد في المثانة كتاب وجع المفاصل والنقرس، كتاب رسالة في ملوحة مياه البحار ، رسالة في بياض البدن وإصلاحه ، أصول الهندسة للعالم سنالاس إضافة إلى كتب عديدة أخرى وترجمات لا حصر لها ، ومن أشهر تلاميذه عيسى بن أسيد النصراني، سنان بن ثابت، أبو الحسن الحراني، إبراهيم بن سنان وغيرهم كثيرون.

ذكره المؤرخ الطبيب ابن أبي أصيبعة قائلاً لم يكن في زمن ثابت من يضارعه في علوم الطب ولا في الفلسفة وذكر له أكثر من مائة وخمسين كتاب ألفها أو ترجمها في مجالات الطب والهندسة والفلك والفلسفة ، لقد كان عالمًا رياضيًا وفلكيًا وفيلسوفًا وطبيبًا ومهندسًا وموحدًا، ومن وصياه:

- راحة النفس في قلة الآثام.
- راحة الجسم في قلة الطعام.
- راحة القلب في قلة الاهتمام.
- راحة اللسان في قلة الكلام.

ومن وصاياه الطبية:

ليس على الشيخ أضر من أن يكون له طباخ حاذق وجارية حسناء لأنه يستكثر من الطعام فيسقم ومن الجماع فيهرم...

رحم الله ثابت فلقد كان مدرسة متنوعة الفنون نقل علمه إلى ذريته بكل أمانة ودقة.

≠ سنان بن ثابت بن قرة :

لقد أخذ عن أبيه في العلم والمعرفة وبرع في الطب كأبيه ولازم الخلفاء وقد ألف وترجم عدد كبير من الكتب ولعلو كعبه في علوم الطب عينه الخلفاء في قصور الخلافة يمتحن الأطباء وينسبهم حسب كفائتهم، ويذكر أنه منح ٨٦٠ طبيبًا شهادة ممارسة الطب، كما عهد إليه الخليفة أن يبني المستشفيات في بغداد على نهر دجلة وكان مستشار لعدد من الخلفاء العباسيين لكونه موضع ثقة وعالم جليل، وافاه الأجل عام ٣٣١ هـ .

≠ ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة :

كذلك قال المؤرخ ابن أبي أصيبعة: لقد كان طبيبًا حاذقًا يجاري أباه في صناعة الطب وقد برز على أقرانه من الأطباء فاعتمده المقتدر بالله والمستكفي بالله والمطيع لله، وله عدة مؤلفات في التاريخ وكتاب أخبار الشام ومصر، مات سنة ٢٩٥ هـ وقد رثاه الشاعر أبي أحمد يحيى النديم:

ألا كل شيء ما خلا الله هالك

ومن يغتربه يُرتجى ومن مات فائت

نعينا العلوم الفلسفيات كلها

خبا نورها إذ قيل مات ثابت

≠ **أبو إسحاق إبراهيم بن سنان :**

لقد كان كاملاً في العلوم الحكيمة فاضلاً في صناعة الطب متقدمًا على زملائه بارعًا في الكتابة، عظيم الذكاء، (عن المؤرخ ابن أصيبعة في كتاب النفيس وعيون الأبناء في طبقات الأطباء)، كذلك ذكره د. أحمد سليم سعيدان في كتابه (رسائل ابن سنان) باعتباره من كبار فلكي زمانه من مدينة حران ، ولد سنة ٢٩٦ هـ وتوفي سنة ٣٣٥ هـ.

≠ **البتاني :**

كان من علماء الفلك المشهورين ومن أشهر مؤلفاته الكواكب الثابتة ومعرفة مطالع البروج ورسالته المشهورة أقدار الاتصالات، ولد سنة ٢٦٤ هـ وتوفي ٣٠٦ هـ.

≠ **سنان بن الفتح :**

حراني برع في علم الحساب والأعداد ومن أشهر كتبه (التحت) في الحساب الهندي ، الجمع والتفريق ، والوصايا ، حساب المكعبات وكتاب شرح الجبر والمقابلة للخوارزمي.

≠ **أبو الحسن الحرافي :**

لقد برع في مهنة الطب، وافر العلم خبير في معالجة مرضاه، واسع الإطلاع في العلوم الطبية وله مؤلفات عديدة ومقالات متنوعة، ولد سنة ٢٨٣ هـ ، وتوفي سنة ٣٦٥ هـ ، كانت له معجزات في شفاء المرضى الذين ظن غيره من الأطباء أنهم من الميتين.

≠ **المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابي :**

ويكنى صاحب الشامة الحمراء في وجهه ، برع في النحو والأدب واللغة والشعر والنثر، كان أديبًا بارعًا، توفي سنة ٤٠١ هـ.

≠ **هلال بن المحسن :**

عمل مع جده أبي إسحاق الصابي في ديوان الإنشاء ولم يزل فتى يافع لم يتجاوز العشرين، ولما نقلوا ديوان الإنشاء عُرف بالكتمان والرصانة والتبصر والوقار وفصاحة اللسان وكان هلال موضع سر وثقة الملوك والسلاطين، وكانت تربطه بالشريف الرضي صداقة متينة، لقد برع في كتابة التاريخ بمختلف فروعه لكونه عاشر الملوك والوزراء ومن خلال عمله في ديوان الإنشاء اطلع على أسرار الدولة ولكثرة من يمده بالأخبار ولإطلاعه على الوثائق المحفوظة والرسائل الرسمية للدولة، وذكره ابن القفطي: لقد كان هلال ملمًا بأسرار الدولة لأنه كاتب الإنشاء ويعلم الوقائع، وقد أوصى ولده غرس النعمة أن يكمل ما بدأه من كتابة التاريخ، ومن أهم كتبه كتاب التاريخ تحفة الأمراء في الأماثل والأعيان، وكتاب مآثر أهله وأخبار الوزير المهلبي وغيرها، قسم منها مفقودة ولو توفرت لعرفنا الشيء الكثير عن المندائيين عمومًا وعن صابئة حران خصوصًا...

وقيل في رثائه:

مـــــات البـــــديع وغـــــارة درة القطـــــن

واستدرج فـــي المـــوت بحـــر الفضـــيل فـــي كفـــن

لله در المنايـــــا مـــــا ضـــــمن بـــــه

ومـــــا تضـــــمنت الأكفـــــان مـــــن بـــــدن

≠ **وهناك عدد من العلماء والأدباء :**

منهم ابن وصيف الصابي، ابن أبي قرة، ابن روح الصابي، قرة بن قميطا الصابي، إبراهيم بن زهرون الصابي، هلال بن إبراهيم الصابي، محمد غرس النعمة، محمد ابن إسحاق الصابي وأبو وحشية، ولكن يبقى أشهرهم ذائع

الصيت الذي كتب عنه الكثيرون وهو أبو إسحاق الصابئي؛ فهو أشهر الأعلام الحرانية نابغة كتاب جيله، فلقد كان أسلافه يميلون لمهنة الطب وإلى علم الفلك ولكنه مال إلى الأدب، فتقلد ديوان الرسائل في العصر العباسي وقد وصفه الثعالبي النيسابوري في كتابه يتيمة الدهر قائلاً:

هو أوحد العراق في البلاغة ومن به تثنى الخناصر في الكتابة وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة وتقلد الأعمال الجلائل، ولقد ذكره ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) حيث قال عنه: هو أوحد الدنيا في إنشاء الرسائل و(الاستمال) على جهات الفضائل.

ولد أبو إسحاق الصابي في بغداد من أبوين صابئيين سنة ٣١٣ هـ، أما أبوه فهو هلال بن إبراهيم الطبيب الحاذق، ماهر في مهنة الطب، أفاد الناس كثيرًا بعلمه واهتمت به الدولة وقربه الخلفاء والوزراء في عصره، وكانت أمه من بيت علم وأدب، فهي بنت سنان بن ثابت بن قرة.

لقد عاش أبي إسحاق الصابي في بيت ميسور الحال عيشة رغيدة فأباه طبيب مشهور تدر عليه مهنته خيرًا وفيرًا، وأمه من آل قرة الأغنياء بعلمهم وأموالهم ومركزهم في قصور الخلافة، لذلك اهتم الوالدان بأبي إسحاق غاية الاهتمام وأرادا أن يكون له مركز مرموق في قصور الخلفاء والوزراء، وأن يتفوق على أقرانه خاصة وأنه من ديانة غير ديانة الدولة وعامة الناس.

إن تربية أبي إسحاق في دار علم فتحت عينيه وهو طفل صغير على أبيه معلمه وراعيه وأمه وأعمامه وأخواله ومعلميه، فتعلم الشيء الكثير منهم، فحفظ الشعر والقرآن الكريم والأحاديث النبوية والأدب وأجاد فسلب باستخدماته الصحية والدقيقة ألباب جميع من يتابعون أدبه، ويقرأون رسائله وشعره فيشهدون له بالبراعة والتفوق، إضافة إلى علو شأنه في العلوم والرياضيات والفلك، فأسَّس المراصد وبرع في صناعة الاسطربالات، كان أبوه يريد أن يكون أبو إسحاق طبيبًا حاذقًا مثله، ولكنه لاحظ ميله للأدب وبراعته في كتابة

الرسائل والإجابة عليها، فشجعه على ذلك، فاعتمده الوزير المهلبي في دواوينه وأغدق عليه العطاء، فكون أسرة وأسعد في الأولاد والبنات دفعهم جميعًا لتعلم العلم والأدب، فبرعوا في ذلك وأصبح لهم شأن كبير.

وأشهر أحفاده المعروف بغرس النعمة وتعني بالمندائية وتتطابق مع شيتل طابا لنبي المندائيين شيتل (شيت) ، فكلمة شيتل تعني الغرس وكلمة طابا تعني الطيب، فيكون الغرس الطيب أو غرس النعمة.

لقد ألف حفيده غرس النعمة ثلاثة كتب مهمة ومعروفة، هي: كتاب التاريخ، كتاب الربيع، كتاب الهفوات النادرة كما ترك أبو إسحاق ثروة كبيرة لأحفاده عاشوا بعده في رغد وعيش هانئ، وقد خدمته صداقته مع الوزير المهلبي خدمة جليلة وظلت هذه الصداقة وطيدة حتى وصلت إلى أن يستخلف المهلبي أبا إسحاق على ديوان الوزارة عندما ذهب لفتح عمان، كانت هذه بداية أبي إسحاق الصابي وصعود نجمه وتقدمه في علمه وأدبه وفي صنعة الإنشاء وكتابة الرسائل ومكانته في قصور الخلفاء والوزراء وبسبب شهرته ومكانته المرموقة.

لقد كتب أبو إسحاق الصابي رسائل متنوعة الأغراض في التحميدات والتهاني والتعازي والمعاتبات والشفاعات والإخوانيات وفي الإهداء والشكر والوصف وفي العتاب والهجاء والرثاء وفي مواضيع شتى، كانت لأبي إسحاق صداقات حميمة منها صداقته مع الشاعر أبي الطيب المتنبي الذي أراد أن يمدحه فخاف عليه من الوزير المهلبي لأن المتنبي لم يمدحه، لأنه وجد الوزير لا يستحق المدح رغم ما عرض عليه من مال وجاه، وكانت له صداقة متميزة بالشريف الرضي صداقة متينة مبنية على الثقة والصدق والمودة والرعاية والمحبة والإيثار، صداقة متميزة استمرت طويلاً حتى وفاة أبي إسحاق رحمه الله.

ورغم تباين السن فلقد تفوقت صداقتهما على فارق السن واختلاف الديانة، فقد عزز صداقتهما حبهما الجم للأدب والشعر واللغة، فعلو شأنهما في هذا المجال

كان سببًا في تعميق هذه الصداقة وتقويتها، لقد فقد الشريف الرضي صديقه الحبيب أبا إسحاق الصابي بوفاته، يقول الشريف الرضي فيه: وإلى الله أشكو دهرًا حال دونه وقطع ما بيني وبينه وأفردني عنه أفراد الأم عن جنينها، إن فقده أعرى ظهري على كثرة حماتي وأنصاري وأوحدني على أقاربي وعشائري.

لقد رثا الشريف الرضي بهذه القصيدة الصداقة الحميمة التي ربطته بأبي إسحاق الصابي، فكانت حقًا مأثرة تغنى بها الكثيرون، ولا شك أن الجميع يذكر استهلالها:

أعلمتَ مَن حملوا على الأعوادِ ؟
أرأيتَ كيفَ خبا ضياء النادي ؟
جبلٌ هوى لو خرَّ في البحر اغتدى
من وقعهِ متتابع الأزبادِ
هذا أبو إسحاق يغلق رهنة
هل ذائد أو مانع أو فادي
إن الدموع عليك غير بخيلة
والقلب بالسلوان غير جوادِ
يا ليتَ أني ما اقتنيتك صاحبًا
كم قنية جلبت أسى لفؤادي
ما كنتُ أعلم قبل اليوم
أن الثرى يعلو على الأطوادِ

رحم الله الشريف الرضي وأبا إسحاق الصابي، أصدقاء أوفياء قدما للشعر والأدب والصداقة الحقة ما يجعله إرثًا نفتخر ونتباهى به جميعًا.

ادعاءات باطلة لا أساس لها من الصحة :

لقد ادعى بعض الكتاب والمؤرخين ولمرض في نفوسهم ادعاءات باطلة ومزورة على الصابئة المندائيين ، أرادوا تشويه الحقيقة والإقلال من قيمة الصابئة المندائيين كقوم موحدين يؤمنون بالله وباليوم الآخر وبأنبياء الله ورسله وكتبه والعمل الصالح، وإن كتابهم المقدس الكنزا ربا هو غرس التوحيد الأول الذي نزل على آدم (ع) وذريته والأنبياء من بعده عليهم السلام أجمعين.

فالصابئة قوم موحدون محبون للسلام والألفة والتعايش مع الجميع ، ويحبون ويحترمون الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله بالحق من بدء الخليقة ، وقد ورد ذكرهم في القرآن والإنجيل وكتب التاريخ ولهم أنبيائهم وكتبهم وتراثهم وتاريخهم ، لقد ذكرهم القرآن الكريم في ثلاث آيات بينات في سورة البقرة والمائدة والحج...

بسم الله الرحمن الرحيم:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [1]

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) [2]

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [3]

كذلك تمَّ ذكرهم في الكتاب المقدس الإنجيل وتعميد نبي الله يحيى بن زكريا للسيد المسيح خير دليل على مكانة أخر أنبيائهم يحيى بن زكريا ، يوحنا المعمدان (يهيا يهانا)، ألم يقل السيد المسيح بحقه:

١- القرآن الكريم : سورة البقرة - الآية ٦٢
٢- القرآن الكريم : سورة المائدة - الآية ٦٩
٣- القرآن الكريم : سورة الحج - الآية ١٧

(اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ : لَمْ يَقُمْ بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ ، وَلكِنَّ الأَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ) ويقصد الملائكة الأثريين الصالحين.

وقال بحقه الرسول الكريم محمد (ص) : (كل ابن أنثى يحاسب يوم القيامة إلا يحيى بن زكريا).

لقد ادعى المؤرخ عبد الرازق الحسني ظلمًا وبهتانًا على الصابئة المندائيين أنهم عبدة كواكب، فمن أين جاء بهذا التجديف؟ وكيف اختلق هذه الكذبة؟ أظنه قرأ عن اهتمام صابئة حران بالفلك ومراقبة النجوم وهذا علم يحسب لهم لا عليهم، لقد امتعض المندائيون من ذلك وأقام كبيرهم في حينها المرحوم الكنزبرا دخيل الكنزبرا عيدان شكوى عليه في المحاكم العراقية، وقد استعانت المحكمة بالأب أنستانس الكرملي كمترجم، وقرأ الشيخ الجليل دخيل تسبيح التوحيد من كتاب الكنزا ربا الكتاب المقدس للصابئة المندائيين، فأدان القضاة عبد الرازق الحسني واتهموه بالتحريف والتزوير المتعمد والمقصود، وطلبوا منه تصحيح ما ذهب إليه من خطأ فاستجاب المؤرخ عبد الرازق الحسني وطلب المعذرة من الشيخ الجليل ومن القضاة فتنازل الشيخ الفاضل وطلب من القضاة الرأفة بالكاتب طالما أنه عرف الحقيقة وأقر بالحق ونبذ الباطل.

أما قصة أشيع القطعي الملفقة حيث ذكر أن الخليفة العباسي المأمون مر بمدينة حران وهو على رأس جيش عرمرم (جرار) لملاقاة الروم، فاستقبله الناس ومنهم الحرانيون، فشاهد لبسهم الأقبية ولحاهم الطويلة، فسألهم من أنتم؟ فلم يجيبوا، فخيرهم بين أمرين إما أن يسلموا أو يتبعوا دين سماوي ذكر في القرآن الكريم، فأشار عليهم أحد حكمائهم أن يقولوا للمأمون عند عودته من الحرب أنهم من الصابئين الذين ذكرهم القرآن الكريم في ثلاث سور كما أسلفنا، ولكن المأمون وافاه الأجل هناك.

إن هذه الرواية ملفقة ومدسوسة وإن كاتبها أراد عن سوء قصد الإساءة للصابئة المندائيين ، بسبب تعصبه وضعف معلوماته ، فهو شخص غير معروف ولا موضع ثقة والأدلة كثيرة على كذب صاحب هذه القصة:

١- لقد كان الخليفة المأمون عالمًا وحافظًا للقرآن ومطلعًا ، فلا تفوته معرفة الصابئة المندائيين في مدينة حران المشهورة في زمانه وأن كثيرًا من العلماء والأدباء والكتبة والمترجمين كانوا يعملون في قصر الخلافة وفي الدواوين وفي دار الحكمة هم من أهل حران ، وأن أبا إسحاق الصابي كان رئيسًا لديوان الرسائل وثابت بن قرة رئيس لديوان الحكمة ، ومن المقربين والمعروفين لدى الخليفة المأمون وهم من أبناء مدينة حران.

٢- إن إطلاق اللحى عند الصابئة المندائيين في ذلك الزمان أمر طبيعي وكذلك لبسهم العمامة ، ومازال رجال الدين حتى يومنا هذا يطلقون شعرهم ولحاهم ويلبسون العمامة لأن في تعاليم الدين المندائي أن الحي العظيم قد خلق الإنسان كاملاً في كل شيء فلا يجوز أن يقص شيء.

٣- لقد عمل قرة بن ثابت الذي كان عالمًا وفلكيًا وطبيبًا وفيلسوفًا ومترجمًا مرموقًا في القصر العباسي لدى المأمون.

٤- لقد كذب القطيعي لأن صابئة حران كانوا يعيشون في حران منذ أزمان سبقت المأمون وخلافته ، ويعلم المأمون وغيره من الخلفاء أنهم كتابيون وكانوا يديرون الدواوين ولهم صداقات وطيدة مع الخلفاء والوزراء ، وكما ذكرنا كانت هناك صداقة متينة بين أبي إسحاق الصابي والشريف الرضي وأخيه الشريف المرتضي.

٥- إن بعض أسماء أهل حران إما عربية أو مندائية مثل زهرون ، وأصل اسم أبي الفتح المندائي وأبي إسحاق الصابي هو دليل على ما نقول.

٦- عندما هاجر الصابئة المندائيون من فلسطين إلى حران وجدوا فيها أخوة لهم في الدين استقبلوهم وساعدوهم واستقروا عندهم ردحًا من الزمن قبل أن

ينحدروا إلى الجنوب ويسمون بصابئة البطائح، وهناك أسباب أخرى تؤكد على خطأ ما ذهب إليه القطيعي[1]، أما صابئة البطائح فهم سكنة جنوب العراق على ضفاف دجلة والفرات وفي عمق أهوار العراق ومدن الجنوب الناصرية والعمارة والبصرة وأقضيتها ونواحيه وقصباتها.

كذلك جنوب غرب إيران على ضفاف الكرخة في مدن عربستان (الأحواز أو خوزستان كما يسميها الإيرانيون)، وهؤلاء الأقوام صابئة مندائيون مثلهم مثل صابئة حران ، فالجميع أخوة لهم نفس الكتاب ونفس الأنبياء ويدينون بدين واحد ويوحدون ربًا واحد ، ويؤمنون بالله والرسل والكتب السماوية والعمل الصالح واليوم الآخر والحساب ، وكتبهم وتعاليمهم وأنبيائهم تدل على هذا إضافة إلى ما يؤمنون به من قيم وأخلاق كريمة وصدق وأمان ولديهم من الحب ما يكفي الجميع.

لقد تطرق باحثون كثيرون شرقيون وغربيون لهذا الموضوع، وأشبعوه بحثًا وتعليقًا ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة للاستدلال على هوية جميع سكان مدينة حران العريقة، واختلفت الآراء بشأنهم؛ كل يحبذ رأي معين، ونظرًا لقدم هذه المدينة في التاريخ حوالي ٢٠٠ ق.م ، وبسبب كثرة الأقوام التي سكنتها أو مرَّت بها من مختلف المشارب والميول، ومن مختلف التيارات؛ أصبح شعبها خليط من الناس، كما أن المصادر التاريخية عنها متضاربة أحيانًا ومتفقة أحيان أخرى.

ولنطلع على آراء الكاتب أحمد عطية زرزور من الناصرية؛ حيث مازال كتاب كثيرون حتى الآن يستهويهم البحث في هذا الموضوع كلما دعت أسباب تدعو للكتابة عنها ، خاصة من أبناء طائفتنا المندائية ، والسبب في ذلك أن أهلنا المندائيين كانوا قد سكنوا هذه المدينة منذ عصور قديمة ضمن أقوام عديدة

---

[1] – لوجود عدة أقوام أخرى تسكن حران ولهم دينهم وعبادتهم، ولربما اختلط الأمر عليه، رغم تطرفه وحقده وتلفيقه عن سوء قصوهذا يـ ،ددل على ضعف معلوماته وتفاهتها.

كانت تسكنها، وأنهم قد مروا بها أثناء هجراتهم المستمرة كما هو مؤشر في بعض كتبنا الدينية (حران كويثا).

ولأن هذه المدينة بالذات قد أفرزت عباقرة في الثقافة والترجمة وفدوا إلى بغداد في وقت نهضتها وعزها، وأفادوا الحضارة والنهضة العربية من أجل رقيها وعُلاها ، ولازالت أسماؤهم لامعة وتدل على أصلهم المندائي مثل أبو الفتح المندائي وآل زهرون والصابي وغيرهم، ولهذا سيبقى هذا الموضوع حيًا وسيكتب عنه الكثيرون كما كتب عنه الكثيرون من قبل.

على مر العصور كان هناك من يقف ويناقض الحقيقة أو يحاول تشويهها، سواء من كان يبتغي المال أو الجاه أو الشهرة، أو من يحاول الانتقاص من الآخرين، ولكن شمس الحقيقة لابد أن تشرق في النهاية ليظهر الوجه الحقيقي للأحداث، ومن بين هذه الحقائق صابئة حران وتشويه مفاهيمهم، وسنحاول في هذا البحث توضيح الحقائق عن أولئك القوم...

ولنبدأ بفذلكة تاريخية حول هذه المدينة العريقة، فكلمة (حران) اشتقت من الكلمة (حرانو) أو (خرانو)، وتعود هذه التسمية للفترة البابلية الأولى، وقد ظهر ذلك واضحًا في النصوص الآشورية التي تعود إلى القرن العاشر ق. م، وتسمية حران ربما جاءت على أكثر الاحتمالات من الآكدية، وتعني محة أو عاصمة تجارية، وذلك لوقوعها بين سوريا وآشور وبابل...

ولقد اشتهرت في التاريخ بأنها موطن لعبادة الإله (سين) إله القمر، وهو مركز الآلهة في الدين الوثني الحراني القديم منذ العصور المبكرة ولغاية تحطيم أخر هيكل عام ١٢٥٩م، هذا مع وجود أقلية صابئية مندائية مقيمة فيها، وأول مؤرخ إسلامي قدم وجهة نظر في تعريف الحرانيين وسماهم صابئة حران هو حمزة الأصفهاني، ومن وجهة نظره قال: إن الكلدان عاشوا في الشمال الغربي وأن ذريتهم تعيش في حران (والرها)، وأنهم تبنوا اسم الصابئة في زمن الخليفة

المأمون عام ٨٣٣م، وقبلاً كانوا يسمون بالكلدان كأسلافهم الذين عاشوا في نفس هذا المكان...

وهذا كلام منطقي، فهو لا ينفي وجود صابئة في حران وما جاورها، ونحن أيضًا لا ننفي وجود وثنيين كانوا يعيشون بجوار الصابئة المندايين لأن حران كانت مدينة كبيرة استقطبت أنواع من البشر، وأنهم ربما كانوا يحتمون تحت مظلة الدين الصابئي المندائي المعروف بالوحدانية منذ أقدم الأزمنة، ولكنهم لم يكونوا مندائيين.

والتستر بالأديان معروف في التاريخ، ويحدث في كل الأزمنة، فإذا تسترت جماعة بالدين المندائي فهذا ليس نقص يلحق بالمندائية، وإنما هو تأكيد على أن المندائيين كانوا يعيشون فعلاً في حران وأنهم موحدون، وأن كثير من الأقوام غير الموحدة كانت تحتمي باسمهم.

وثاني المؤرخين الإسلاميين الذن تناول الصابئة هو الخوارزمي الذي عاصر الأصفهاني، ووافقه في الرأي وسمى الكلدان الحرانيين الوثنيين بصابئة حران مع إضافة بعض المعلومات المغلوطة كسلفه الأصفهاني، حيث قال إن أبناء الكلدان الحرانيين يعيشون في حران ، وأنهم انتحلوا اسم الصابئة في زمن المأمون، ولكنه أضاف أن الصابئة الحقيقيين هم مجموعة أو فرقة مسيحية)، وهذا كلام غير واضح ومرتبك، ففي البداية قال إن الوثنيين اهتموا باسم الصابئة الموحدين ليتحاشوا العقاب، وأن تلك التسمية لحقتهم منذ زمن المأمون، ولكنه ادعى بعدئذ أن الصابئة الحقيقيين صابئة واسط وميسان والبطائح والطيب هم أنفسهم صابئة حران الوثنيون دون أن يوضح أين كان الصابئة المندائيون.